

لا تَشْمِتُوا...

دخل على إبني وأنا مأخوذ بمشاهدة فيلم "هوليودي"، فسألني:

-لِمَا كلّ هذه الجَلَبة منذ أيام حول ما يجري في إسرائيل؟!

-صَحْح السُّؤال لِأَنَّا نَاقِشُ مَعَكَ.

-وَمَا الخطأ في السؤال؟!!

-يجب أن تقول فلسطين المحتلة وليس إسرائيل.

-اعتبر أنّي قلتها وأجنبني لو سمحت.

-ما الذي تُريد معرفته بالتحديد لأنّي أوّد متابعة الفيلم؟

-لماذا غالبية المسيحيين غير متضامين مع ما يحصل هناك؟

-لأنّ المسيحيين سلّفوا الفلسطينيين مائة سنة إلى الأمام، باقي منها سبع عشرة سنة.

-وضّح لو سمحت.

-بعد أن ينتهي الفيلم.

-لا، الآن. صديقي جو يريد معرفة رأيك ووعدته أن أرجع إليه بالجواب فوراً.

-لا بأس، ركّز في ما سأخبرك إيه.

غداة الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢، وصلت طلائع الجنود الإسرائيليين إلى "الضبية" وأقامت لها غرفة عمليات ثُبِيل النفق. ما كادوا ينتهيون من تجهيز الموقع، حتّى أمر الجنرال المسؤول بإحضار الشاعر سعيد عقل أمامه. عرف بشير الجميل بأنّ الإسرائيليين يسعون خلف سعيد عقل، فانتابه شعور بالقلق، فاتّصل بأبي أرز (إتيان صقر) وطلب منه التدخل مع الإسرائيليين لمعرفة ما يحصل. فوراً حضر أبو أرز إلى "الضبية" للاستفسار، ودار بينه وبين الجنرال المسؤول الحوار التالي:

الجنرال: وما دخلك أنت في الأمر يا أبي أرز؟

أبو أرز: إنّه سعيد عقل وتسألني ما دخلني في الموضوع؟

الجنرال: وهل يُرّعِجُكَ أن تعرّف على الشخص الذي كتاباته وقصائده حرّكت الثورة الفلسطينية ضدنا؟

أبو أرز: هذا يتوقف ما إذا كنت تُريد أن تتعرّف على الشاعر العبري، أم على "المتهم" بإشعال الثورة في وجهكم.

الجنرال: إعتبر أنّي لا أرغب بأكثر من التعرّف إليك.

أبو ارز: إذاً قُل لي متى تُريد لقاءه لأرسل الشباب كي يأخذوك لزيارتة. سعيد عقل لا يحضر إلى هنا. (فكّر قليلاً أبو أرز ثم تابع) علينا أوّلاً أن نتأكد ما إذا كان سعيد عقل يرغب بالتعرّف إليك...

الجنرال: معك حق. إنه فعلًا شاعر استثنائي ومُلهم، حتى أنا معجب بكتاباته المناصرة لأعدائنا.

وراح الجنرال، الذي يُتقن العربية جيدًا، يردّ مقاطع من قصيدة سعيد عقل "سيف فليشهر":

...أنا لا أنساكِ فلسطينَ ويشدَّ يشدَّ بيَ البعْدِ

أنا في أفيانك نسرِينُ أنا زهر الشوك أنا الورْدُ

سندُكِ ندَكُ الأسوارَ نستلهم ذاك الغارِ

ونعيُدُ إلى الدارِ الدارِ نمحو بالنارِ النارِ

فلتصدُغ فلتتصدُغ..

أبواقُ أجراسُ تُقرَعُ.. قد جُنَّ دمُ الأحرارُ

ليس سعيد عقل المسيحي الوحيد الذي ألمه الثورة الفلسطينية، الاخوان رحباي فعلوا أيضًا. عليك يا ولدي أن تستمع إلى أغنية "القدس العتيقة" حين صحت فيروز:

... عم صرّخ بالشوارع ... شوارع القدس العتيقة

خلي الغنيّي تصير عواصف وهدير

يا صوتي ضلّك طاير زوبع بهالضماءير

خبرّهن على صابر بلكي بيو عى الضمير

الرئيس كميل شمعون تعرّض لنوبة قلبية، كادت تودي بحياته، وهو يُدافع عن قضية فلسطين في الأمم المتحدة. وكذلك فعل الكثيرون من المفكّرين والصحافيين المسيحيين الأقحاح أمثال: ميشال شيخاً، والسفير والوزير جورج نقاش، والكافن الماروني ميشال الحايك الذي أشعل القلوب بعظاته عن فلسطين عبر أثير الإذاعة اللبنانيّة، ورئيس تحرير "الـ-وريان لو جور" رينيه عجوري ...

هكذا، يا ولدي، سلف المسيحيون في لبنان القضية الفلسطينية مئة عام إلى الأمام، وإذا رجعت إلى أرشيف كلّ من ذكرتهم، لوجدت أنّهم دافعوا عن فلسطين أكثر من الفلسطينيين أنفسهم.

هذا سأل إبني: وهل تقبل أن يتذكر البعضاليوم لما يتعرّض له الفلسطينيون؟

-لا أقبل، لكنّي اتفهم الأمر بعد الذي فعله الفلسطينيون بوطننا منذ إتفاقية القاهرة.

-كن صريحاً.

-ماذا ثريدني ان أقول؟ الأمر معقد! بعد كلّ الذي فعلناه كمسيحيين من أجل قضيتهم، وبعدما أوصلناها إلى أعلى المنابر الدولية، بادلونا بالسوء، وتأمروا علينا، وكانوا يُ يريدون أن يشقوا طريقهم إلى القدس بسحلنا وبالمرور على أجسادنا.

-وما ذنب الذين يُواجهون الإسرائيليالي اليوم في القدس وغزة، فهم جيل جديد وبالكاد يعرفون من أساء إلى لبنان من أسلافهم؟

-قلت لك أنّ الأمر معقد.

-قل لي شيئاً آخرًا...

-أقول:

لا تَشْمِتُوا بالفَلَسْطِينِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ إخْرَاجَكُم مِّنْ مَنَازِلِكُمْ، وَالْيَوْمَ تَفْعَلُ بِهِمْ إِسْرَائِيلَ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ فَعْلَهُ بِكُمْ.

لا تَشْمِتُوا بالفَلَسْطِينِيِّينَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُرِيدُونَ تَهْجِيرَكُم مِّنْ وَطْنِكُمْ، وَهُمْ فَقَدُوا الْيَوْمَ كُلَّ أَمْلٍ بِاسْتِعْدَادِ وَطَنِهِمْ.

لا تَشْمِتُوا بالفَلَسْطِينِيِّينَ لِأَنَّهُمْ ارْتَكَبُوا الظُّلْمَ بِحَقِّكُمْ، وَهُمْ الْيَوْمَ مُتَرَوِّكُونَ لِمُصْبِرِهِمْ أَمَامَ صَمَتِ الْعَالَمِ عَنْ لَفْظِهِمْ أَنفَاسِهِمْ.

لا تَشْمِتُوا بالفَلَسْطِينِيِّينَ لِأَنَّهُمْ أَخْطَلُوا بِالْتَّآمِرِ عَلَيْكُم مَّعَ مَنْ اعْتَقَدوْهُمْ مُنَاصِرِيْنَ لِقَضَيَا فَلَسْطِينَ، بَيْنَمَا هُؤُلَاءِ مَا كَانُوا يُرِيدُونَ سُوَى اسْتِغْلَالِ قَضَيَا فَلَسْطِينَ لِلْلَّيْلِ مِنْ رَأْسِ الْمَوَارِنَةِ وَالْمُسِيَّحِيِّينَ الَّذِينَ اسْتَبَسُلُوا لِعَقْدِ الْزَّمْنِ دَفَاعًا عَنْ هَذِهِ الْقَضَيَا.

قل لصديقك جو يا ولدي، بالتأكيد لن نتضامن، كمسحيين لبنانيين، مع الإسرائييليين، إذ يكفينا ما يلحقنا لغاية اليوم من ظُلمهم التعامل مع إسرائيل. وإن تضامناً مع الفلسطينيين، وهنا أشخص عن خبرة، فسنظل نُنْتَعَنُ بالعلماء الصهاينة. وإن صمتنا سنُنْتَعَنُ ظُلْمًا وجورًا بالتأمر مع الصهاينة.

أنا أختار الصمت على غيره، لأنّ لبنان مدجّج بالأسلحة الإلهيّة التي تعدنا منذ عقود بتحرير القدس، وهذا السلاح أثبت فاعليته في سوريا والعراق واليمن، ويشكّل التوازن مع إسرائيل ويُرعب القوى العُظمى، ولم يصل بعد إلى القدس. فلم لا نترك له الساحة ليمحو إسرائيل عن الخارطة كما يعدنا سماحة الأمين العام حسن نصر الله، وإسرائيل على قاب قوسين من هذا السلاح، "وإنه لغالب"؟... فلا تشنتموا، بل اصمتوا وراقبوا التغييرات حتّى تبان الحقيقة.

أنهيت كلامي وعدت لمتابعة الفيلم "الهوليودي": كان الفيلم قد انتهى.